15
استراحة في أريحا

هل بدأت من البدء؟ في 4 تموز 2004، يوم شروعي بهذه الرحلة الخاصة مصحوبة بابني. سفر إلى أخر فلسطين... كسفر سيلين(*) إلى أخر الليل. في كل الاتجاهات ونحو كل الوجهات، أغور في تمزقاتي، في عمق أعماق فلسطين مجزأة ومقطعة الأوصال على يد محتل متسلط. لا التصق بها ولا الصقها بي لأشبعها تقبيلًا بنظراتي ولألمس جمالها من جديد. أتساءل، كيف التقطها؟! وكل هذا التنوع والتعدد واللا تجانس...؟ كل هذا التناقض؟ هي ليست اثنتين فقط، البلد الفوقاني والبلد التحتاني، هي مركبة يشتبك

(*) لوييس فردينان سيلين 1894–1961 (Louis-Ferdinand Céline).
من أشهر الروائيين الفرنسيين في القرن العشرين، اشتهر بعد نشر روايته الأولي "سفر إلى أخر الليل" عام 1932 حيث ينتقد فيها بنمطه الأدبي الفريد رعب الحرب وقسوة الرأسمالية وإلى حدّ ما الاستعمار. (ويكبيديا)

الكل فيها ويتقاطع... وسمات الحنان على وجوه أهلها لا تخفي تناقضاتها الاجتماعية.

في المساء يقترح علينا ساري:

– لنذهب إلى أريحا فغدًا يوم عطلة.

هذا ما فعلناه. نستقل سيارة ماريان صديقة ساري وهي فرنسية تعمل مديرة لمركز ثقافي فرنسي. على الطريق يلفحنا اللهيب وحولنا أرض صفراء جرداء كأنها سطح القمر. من حين لحين ترشدنا لوحات بالعبرية والعربية والانكليزيـة إلى "البحر الميت". يخامرني احسـاس أني أخذت بطاقة إلى الجحيم، وأسـأل نفسي أأنا وحدي التي تشـعر بهذا؟ ولمَ شعور بحرقة يهبّ في داخلي؟

نصل مركز المدينة القديمة التي يقال أنها الأقدم في العالم. اقترحُ أن ننزل ونمشي قليلًا، لكن ماريان تعترض وتتعلل بالتعب وتقترح الذهاب أولا إلى فندق جيد كي نستريح وننتعش. حسنًا ليست فكرة سيئة. نتناول طعامًا فلسطينيًا تمامًا، فلافل وحمص وسلطة ومشويات وعصير طازج من الليمون والنعناع ونستمتع بالخدمة اللطيفة والاهتمام. ننزل بعدها إلى بركة سباحة مفتوحة تطلّ على جبال عارية مهيبة. نعوم في المياه الدافئة وحولنا أطفال يُدعون جورج، دانيال، كريستينا وفرانسيس، وأمهات وآباء أسماؤهم إلينا، انطونيوس، ميريل، كريس. أسأل ساري إن كانوا كلهم مسيحيين هنا، فيرد:

– هذا مكان للموسرين كما تعلمين، ووضع المسيحيين هنا أفضل حالًا من غيرهم. يودون الحديث معك بالفرنسية كما أخبروني.

الجو حارٌّ، حارٌّ، وماريان تبدو منهكة. ترفض تمامًا مجاراتي والقبول بجولة في أريحا ولا تعير اهتمامًا لرغبتي. حسنًا! ماريان هذه، التي أرقبها بين حين وآخر بطرف عيني، بدأت تثير أعصابي. تبلّد الحسّ على هذا النحو المعلن يغضبني ويحبطني في آن. ربما تجهل سبب وجودي هنا وأهمية كل لحظة وكل جزء من الرحلة لي. تعطيني انطباعًا بأنها مجروحة لا تحبُّ ولا تقدّرُ شيئًا مما ترى. ثمّ عرفت السبب فهي غارقة في قصة مستحيلة مع فلسطيني بدوي، حبّ مدمر يؤثر على كل شؤون حياتها.

المساء يقترب، وعلينا العودة وعبور الحاجز قبل التاسعة أو العاشرة. لكن ساري الذي لا يعبأ بالساعات المحددة، يتوقف في سوق المدينة لارضائي واسعادي. يتحلق البائعون حولنا يرحبون بنا ويدعوننا للشراء. نشتري منهم فواكه وخضار تشتهر بها أرض أريحا الخصبة من بطيخ أحمر وأصفر وعنب "من الفردوس" برائحته العطرة وخيار صغير لذيذ كم كانت أمي تذكره. البائعون يصيحون على البضاعة بحماس وحبّ:

– يالله! يا الله! شيل! شيل!

وحين يلاحظون قلقنا من الساعة التي تتقدم، يحاول كل بدوره طمأنتنا:

– لا تهتموا. يمكنكم قضاء الليلة عندنا. أهلًا وسهلًا!

ساري يثق بصدق دعوتهم وحقيقة مشاعرهم، إنما علينا فعلًا المغادرة بسرعة وفي لمح البصر.

لكن هل هي التاسعة؟ أم العاشرة ليلًا؟ ثمة فرق، ينبهنا الناس هنا بأن الإسرائيليين لا يعلنون أبدًا موعد أخر حاجز وعلى المرء أن يخمن.

– هم هكذا! يفعلون ما يشاؤون وكل ما يريدون.

وأنا، لم أدرك تمامًا ما يعني هذا.

ليس لدي أي سلطة على سير الأحداث. وأتساءل فقط عن هذه الحياة بصحبة ساري حيث كل شيء ينزلق بسهولة فوق أرض وعرة! مهما سألت نفسي فلا جواب إلا تلك الجبال الجرداء والحرّ المرهق والجنود الشباب على الحاجز، وابتسامة أهل بلدي الهادئة المشبعة بالقلق. أتساءل... وأعجب ألف مرة وفي كل مرة يعودني طعم البحر الميت كالعلقم في فمي، وتلاحقني رغبة أن التصق بهذا البلد، أن أتغلغل بعمق في أرضه العارية القاسية المالحة...

نعبر الحاجز واجراءته المعتادة.